الأمانة
في ضوء القرآن الكريم

بقلم
دكتور
فتحي محمد محمد غريب
مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن
بالكلية

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا[1].

والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن فبين للناس ما نزل إليهم من ربهم ولعلهم يتفكرون.

وبعد ...

فإن موضوع الأمانة كما تصوره آيات القرآن الكريم، ونصوص السنة، فى غاية من الأهمية، لأنه من الأسس والدعائم التى أرساها الإسلام لأبنائه ومعتنقيه، ليهديهم بها إلى الطريق المستقيم، فى كل ميادين الحياة النافعة، من الصدق فى القول والإخلاص فى العمل، والتحلى بصفة الأمانة، وغير ذلك من الأسس والدعائم المحكمة الدقيقة، والتى بها ترقى الأمم، وتنهض بها الحضارات.

ومما يؤكد عظم المسئولية فى الأمانة وأهميتها، هو أن الله سبحانه قد أمرنا برد الأمانات إلى أهلها، ولولم يدخلوا الإسلام فقال تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ...»[2] وحسبنا فى الأمانة وأهميتها،

---

(١) سورة الكهف الآيات: ١، ٣.

(٢) سورة النساء آية: ٥٨.

وشرف من يتصف بها ، أن النبى (ﷺ) قد نفى الإيمان عمن لا أمانة عنده ، فقال (ﷺ) : « لا إيمان لمن لا أمانة له »[1] والأمانة كلمة عامة تشمل كل مايؤتمن عليه المرء ، ويطلب منه المحافظة عليه ، والله تعالى قد أمر الإنسان بأداء الأمانات على وجهها الصحيح ، وألا يفرط فيها مهما كلفه ذلك من متاعب ، لأن فى أدائها رضا الله ، وتطييبا لخواطر الناس وحفظا للمصالح العامة وفوق كل ذلك أنه فى الآخرة من الذين يرثون الفردوس هم خالدون ، وفى تضييع الأمانة والتفريط فيها شقاء فى الدنيا والآخرة ، وضياع للمصالح ، ولذلك نهى الله عن خيانتها وتضييعها فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »[2] .

فالمومن المتصف بالأمانة لهو جدير بوعد الله فى الحياتين الدنيا والآخرة.

ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، فقد تحدثت فيه بما من الله به على ، ورتبت هذا البحث وقسمت موضوعاته إلى مقدمة وأربعة مقاصد ، وخاتمة ، ثم ذيلت البحث بقائمة ذكرت فيها أهم المراجع ، فذكرت فى المقدمة أهمية هذا الموضوع ، والحاجة الماسة إليه ، وخاصة فى الوقت الذى انعدمت فيه الضمائر عند بعض الناس .

وفى المقصد الأول : عرفت الأمانة فى مفهوم القرآن ، وترغيب القرآن الكريم فى أدائها .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٦٢٦ ، كنز العمال ٣/٦١ .

(٢) سورة الأنفال آية : ٢٧ .

وفى المقصد الثانى : ذكرت أن الأمانة كانت صفة الأنبياء والمرسلين وخاصة فى تبليغ الرسالة ، بل هى من الصفات الواجبة لهم .

وفى المقصد الثالث : ذكرت ثواب الأمناء فى الدنيا والآخرة وأنهم جديرون بوعد الله فى الحياتين .

وفى المقصد الرابع : ذكر عرض الأمانانة على السموات والأرض والجبال ، وهل كان على الحقيقة أم سبيل المجاز ، ثم ذكرت بعد ذلك حمل الإنسان للأمانة ، ثم ذكرت بعض النتائج التى تستخلص من هذا البحث .

المقصد الأول

تعريف الأمانة وترغيب القرآن فى أدائها

قال صاحب اللسان : « والأمن ضد الخـــوف ، والأمانة ضد الخيانة »[١] .

وقال صاحب القاموس القويم: « أمن من باب فرح يأمن أمناً وأمنا وأمنة إطمئن ولم يخف « أمن الشر لم يخفه « وأمن منه سلم وأمن فلانا على كذا إطمئن إليه ووثق به، وقوله تعالى : « هل أمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل »[٢]، وقوله : « فإن أمن بعضكم بعضا »[٣] ، أى : وثق به ، وقوله : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا »[٤] ، أى اطمأنوا ولم يخافوا »[٥] .

أما تعريف الأمانة لدى المفسرين ، فقالوا : إنها تختلف من موضع

---

(١) لسان العرب ، مادة أمن : ١٤٠/١ ، القاموس القويم ٣٤/١

(٢) سورة يوسف ، آية : ٦٤

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٨٣

(٤) سورة الأعراف ، آية : ٩٧

(٥) القاموس القويم : ٣٤/١

لآخر ، فقد جاءت فى كثير من آيات القرآن وفى مواضع متفرقة من القرآن مما يوضح أن الأمانة ليس لها تعريف محدد لدى المفسرين نظرا لتعددها وتنوعها ، فالأمانة لفظ عام تطلق على كل ما يؤتمن عليه المكلف تجاه الناس وخالقهم ، ولكن الذى يحدد نوعية الأمانة هو سياق الآية الوارد فيها .

ترغيب القرآن فى أدائها

قال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا »(١) .

سبب نزولها :

ذكر المفسرون أن سبب نزول هذه الآية هو : ما ذكره الإمام الواحدى فى كتابه أسباب النزول بسنده عن مجاهد بن جبر فى قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... » قال : نزلت فى عثمان بن طلحة الحجبى من بنى عبد الدار وكان سادن الكعبة فلما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله ﷺ المفتاح فقيل أنه مع عثمان فطلب منه فأبى وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب فدخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ عليا أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ففعل ذلك على فقال له عثمان : يا على أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال : لقد أنزل الله تعالى فى شأنك وقرأ عليه هذه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن محمدا

---

(١) سورة النساء آية : ٥٨

رسول الله فجاء جبريل عليه السلام فقال : مادام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان وهو اليوم فى أيديهم وذكره كذلك النيسابورى فى كتابه أسباب النزول بدون سند ، وذكر أن عثمان بن طلحة بعد أن نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ فقال عثمان : أشهد أن محمداً رسول الله وأسلم — فجاء جبريل عليه السلام فقال مادام هذا البيت فإن المفتاح والسدانة فى أولاد عثمان وهو فى أيديهم(١) .

وفى رواية أن النبى ﷺ قال : « خذوها يابن أبى طلحة بأمانة الله لاينتزعها منكم إلا ظالم »(٢) .

والخطاب فى هذه الآية وإن نزلت على هذا السبب الخاص فإن ذلك لايخرج اللفظ عن عمومه فهو عام فيتناول كل ما يؤتمن عليه الإنسان سواء أكان ذلك فى حق الله أم فى حق نفسه أم فى حق غيره من العباد ، فكل ذلك يجب رعاية الأمانة فيه ، وذكر صاحب تفسير النكت والعيون أن هذه الآية نزلت فى الودائع وغيرها من الأمانات(٣) .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ١١٧ ، وأسباب النزول للسيوطى ٥٥ ، وأسباب النزول للنيسابورى : ١١٥

(٢) المعجم الكبير للطبرانى : ١٢٠/١١ ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : باب فى أمر مكة من الإذن والحجابة ٣ / ٢٨٥ ، وذكر الهيثمى أن هذا الحديث فيه ابن المؤمل ، وثقه ابن حبان ، وابن معين ، وضعفه جماعة .

(٣) تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد السايس ٣٥٣ النكت والعيون للماوردى ٢٨٥/١

ومن ثم نقول كما قال الأصوليون: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

إذن فما الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان مع ضعف قوته وقلة حيلته. قد ذكر العلماء أقوالا عديدة في مفهوم الأمانة منها:

ما قاله الشيخ الغزالي: أن الأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة وهي ترمي إلى معان شتى مناطها جميعاً شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه على النحو الذي فصله الحديث الشريف وأخرجه الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعل وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1].

فالأمانة ضد الخيانة، كما أن الأمن ضد الخوف، وبضدها تتميز الأشياء، فإذا كانت الخيانة تعني النقص يقال: خونه إذا نسبه إلى الخيانة

(١) صحيح البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن حديث رقم: ٣٠٤/١٨٥٣ وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل ٢/١٦٨

ونقصه بها فإن الأمانة في المقابل معناها: التمام ومما زاد هذا المعنى توثيقا ما ذكره صاحب اللسان فقال: والأمانة ضد الخيانة»[1].

وفي القاموس القويم: والأمانة: مصدر أمن فهو أمين، وتطلق الأمانة على الوديعة نفسها قال تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها..»[2] أي الودائع.

وقوله: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض..»[3] فالأمانة هنا مستعارة للتكاليف الشرعية من أوامر ونواه وأحكام، وعقائد وعبادات وأخلاق[4].

والأمانة جاءت في لسان الشرع بمعان عديدة:

أولا: هو ما قاله الضحاك: أمانات الناس المعروفة أي التي يضعها صاحبها عند غيره ليستردها عند الحاجة إليها، كما جاء الأمر بذلك في هذه الآية.

ثانياً: الحقوق المتعلقة بالمكلفين سواء أكانت لله أم للعباد، وسواء أكانت فعلية أم قولية، أم اعتقادية، أم مادية.

(١) خلق المسلم للشيخ الغزالي ص ٤٢
(٢) سورة النساء آية: ٥٨
(٣) الأحزاب آية: ٧٢
(٤) القاموس القويم: ١/٣٥

ومن ذلك : قول ابن عباس : إن الأمانة : هي الفرائض ، ومما أخرجه السيوطي في تفسيره عن عبد الرزاق عن زيد بن أسلم عن رسول الله ﷺ قال : « الأمانات ثلاث : الصلاة ، والصيام ، والغسل من الجنابة »[1] .

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : ألا تستعملني ، قال : فضرب بيده على منكبي ثم قال : « يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها »[2] .

ثالثاً : أن الأمانة هي الصفة المتضادة للخيانة ، وهي صفة غريزية تحمل صاحبها على تأدية الحقوق لذويها مادية كانت أو معنوية للخالق أو للمخلوق .

وقال الشيخ رشيد رضا في تفسيره في هذا الموضع : « الأمانة ما يؤتمن عليه الإنسان من الأمن وهو طمأنينة النفس ، وعدم الخوف يقال : أمنه

---

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ السيوطي في تفسيره وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد في مسنده ، وبعد أن رجعت إلى تفسير عبد الرزاق ، ومصنفه ، ومسند عبد بن حميد لم أقف على هذا الحديث فيهما إلا أنه موجود في الدر المنثور للسيوطي ج٢/٥٧١

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة : ١٢/١٦٥

كسمعته على الشيء « هل آمنكم عليه إلا كما فتسكم على أخيه من قبل »[1] .

ويقال : أمنه بكذا « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك »[2] ، ويقال . ائتمن فلاناً ، أي أعده واتخذه أميناً أو ائتمنه على الشيء فأمنه عليه فليؤد الذي أو تمن أمانته »[3] .

وكل أمانة يجب حفظها ، ومنه ما يحفظ فقط كالسر ، كما جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال : « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة »[4] .

ومنه يعلم أن كل الإئتمان من قول وعمل وعرف وقرينة يجب اعتباره والعمل به ، وتقدم تصريح الأستاذ الإمام بذلك ، ومنها :

أي الأمانة — ما يحفظ ليؤدى إلى صاحبه سواء أكان هو الذي ائتمنك عليه أو غيره ، لأجله ، ويسمى من يحفظ الأمانة ويؤديها : حفيظاً وأميناً ، ووفياً ، ويسمى من لا يحفظ أولا يؤديها : خائنا « يأيها

---

(١) سورة يوسف آية : ٦٤

(٢) سورة آل عمران آية : ٧٥

(٣) سورة البقرة : ٢٨٣

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٣/٣٨٠ ، المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٢ / ١٧٦ ، اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ٦/٢١٦

الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »[1] فمن خان عامداً عالماً كان من العصاة ووجب عليه الضمان[2].

وقال الخازن فى تفسيره لقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قال : « تنقسم الأمانة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : رعاية الأمانة فى عبادة الله عز وجل ، وهو فعل المأمورات ، وترك المنهيات ، قال ابن مسعود : الأمانة لازمة فى كل شىء حتى الوضوء والغسل من الجنابة ، والصلاة والزكاة والصوم وسائر أنواع العبادات .

القسم الثانى : رعاية الأمانة على نفسه وهو ما أنعم الله عليه من سائر أعضائه فأمانة اللسان : حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك ، وأمانة العين : غضها عن المحارم ، وأمانة السمع : ألا يشغله بسماع شىء من اللهو والفحش والأكاذيب ونحو ذلك ، ثم سائر الأعضاء ، على نحو ذلك .

القسم الثالث : هو رعاية الأمانة مع سائر عباد الله فيجب عليه رد الودائع والعوارى إلى أربابها الذين أتمنوا عليها ولا يخونهم فيها[3] ، قال

(١) سورة الأنفال ، آية ٢٧

(٢) تفسير المنار حـ٥/١٧٣ ، ١٧٤ ا.هـ بتصرف .

(٣) تفسير الخازن ١/٣٧١

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك »[1] .

وقال الشيخ الغزالى : « والعوام يقصرون الأمانة فى أضيق معانيها وآخرها ترتيباً ، وهو حفظ الودائع من أن حقيقتها فى الدين أضخم وأثقل ، إنها الفريضة التى يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله على حفظها حتى أنه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر يقول له أخوه : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك .

وقال أيضاً : ومن معانى الأمانة : وضع كل شىء فى المكان الجدير به ، واللائق له ، فلا يسند منصب إلا لصاحبه الحقيق به ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذى ترفعه كفايته إليها[2] .

وقال الحافظ ابن كثير بعد عرض هذه الأقوال فى تعريف الأمانة فقال : « وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكاليف أو قبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله : وبالله المستعان »[3] .

ومما تقدم نقوله : إن الأمانة لفظ عام يشتمل على ما بين العبد وربه

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٤١٤

(٢) خلق المسلم : ٤٢ ، ٤٣

(٣) تفسير ابن كثير : ٣/٥٢٢

وعلى الأسرار والعهود ،والودائع وغير ذلك مما يجب أن يصان ويحفظ فالمؤمن الذى يؤدى مسئوليته وأمانته ، التى اؤتمن عليها يؤديها من غير مماطلة وفى غير حاجة إلى رقابة عليه تتعقبه، أو تتبع خطواته فى الأداء ، لأن أدائه للأمانة والوفاء بها يكون بوحى من ذاته ومن إحساسه بالمسؤلية والواجب ،شعوره بالحرية ويقينه بأن الله مطلع عليه، ولقد رغب القرآن الكريم أمته وحثهم على التحلى بعظيم الصفات ومكارم الأخلاق وحفظ الأمانات والسهر على رعايتها لتصان بذلك الحقوق وترعى الذمم وتؤدى حقوق العباد كم أمرهم ربهم دون تقصير أو تضييع للأمانة ومن أجل هذا وذاك عظم الإسلام من شأن الأمانة وحث على أدائها ورغب فى الوفاء بها فقال تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها — الآيه » .

ونهى عن الخيانة ونفر فنها لأنها من الصفات المذمومة التى لا تليق بذوى الدين وأصحاب المروءات فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم ... » .

وذمها النبى (ﷺ) أشد الذم ، فقال فى الحديث الشريف المروى عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر »[1] .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : خصال المنافق : ٢ / ٣٩

فيجب أن نعلم أن الوديعة صورة من صور الأمانة ، ومن أجل هذا قال الفقهاء : ليس له أن يسافر بالوديعة إلا إذا أمن الطريق فإن لم يأمنه واضطر للسفر تركها عند ثقة ، وليس له دفعها إلى غيره بدون إذن صاحبها ولو وضعها فى جيبه فسرقت فإنه يضمن إلا إذا أذن له فى حملها ، ومن الأمانة أيضا : صلة الرحم ، وبر الوالدين ، والشهادة الصادقة ، وأداء المرء وكفائيه فى عمله الذى كلف به بإخلاص ، وأسرار الناس تعتبر من الأمانة ، وإهمال شىء من ذلك يعتبر من الخيانة[1] .

قال الشيخ الغزالى :«ومن الأمانة :أن لا يستغل الرجل منصبه الذى عين فيه لجر منفعة إلى شخصه أوقرابته ، فإن التشبع من المال العام جريمة[2] .

---

(١) الفقه على المذاب الأربعة : ٣/٢٥٧ ، درر الحكام شرح مجلة الأحكام : ٢/٢٥٩

(٢) خلق المسلم : /٤٥

المقصد الثانى

أمانة الرسل عليهم الصلاة والسلام

لو استعرضنا تاريخ الرسل الذين اصفاهم الله من عباده لحمل رسالته وأرسلهم ليبلغوا رسالته ، لوجدنا أنهم كانوا أخيار البشر قبل الرسالة وبعدها ، فصفة الأمانة وإن كانت فى حق البشر ليست بلازمة فقد تنفك عنهم أحيانا فهى فى حق الرسل ملازمة ، وإن كانت فى حق البشر تخلقا فهى فى حق جميع الرسل خلق ، وهى من الصفات الأربع الواجبه فى حق الرسل ، قال تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته ... »[1] .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يراها وهى تعرض القصص للأنبياء والمرسلين توضح أنهم كانوا أمناء فى دعوتهم ، فكانوا يبينون لأقوامهم أول ما يبينون أنهم أمناء حملوا رسالة ربهم فهم يؤدونها كما أمروا بتبليغها دون تقصير أو تضييع .

قال تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين »[2] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٢٤

(٢) سورة الشعراء آية : ١٠٥ — ١٠٨

وقد جعل الله تكذيبهم لنبيه نوح عليه السلام بمنزلة تكذيبهم لجميع الرسل عليهم السلام لأن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل ، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل ، قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[1] .

والدليل العقلى على وجوب صفة الأمانة للرسل : « عليهم السلام » : هو أنهم لو خالفوا الله فى ترك مأمور أو فعل محرم أو مكروه فكونهم مأمورين به لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم فى أقوالهم وأفعالهم من غير تفضيل ، فلو لم تجب لهم الأمانة لجازت عليهم الخيانة ، ولو جازت عليهم الخيانة لما أمرنا الله باتباعهم فى القرآن ، وأن لنا فيهم الأسوة الحسنة ، فكونه أمرنا باتباعهم يثبت لهم الأمانة .

أما الدليل النقلى على وجوب صفة الأمانة للرسل ، قوله تعالى: « إنى لكم رسول أمين »[2] وقوله تعالى : « وأن الله لا يهدى كيد الخائنين »[3] فالأمانة وكذا العصمة التى هى حفظ الله ظواهر الرسل وبواطنهم من الصفات الواجبة للرسل لأنهم سفراء بين الله وخلقه يقومون بتبليغ أوامره ونواهيه ووعده ووعيده ويعلمون العباد ما خفى عليهم ، وكانوا فى حاجة إليه فالرسل هم خيار خلق الله خلقا وسلوكا وهيئة وأنهم مفضلون على من عداهم

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥

(٢) سورة الشعراء آية : ١٠٨

(٣) سورة يوسف آية : ٥٢

فإذا كاهذا هو شأنهم بعد أن اصطفاهم الله وكلفهم بتبليغ رسالته فهم أحرى أن يكونوا المثل الأعلى فى الفضائل كلها والنموذج المحتذى فى كل مايجب على المرء عمله واجتنابه ، فعملهم بعد البعثة مؤيد من الله وتحت رقابته فأدوا الأمانة للناس كاملة وبلغوهم وحيه بصدق ،لهذا وغيره يجب لهم من الصفات ما يحقق الغاية من إرسالهم فيجب لهم إجمالا كل صفات الكمال البشرى ويجب لهم تفصيلا الأمانة ، والصدق ، والتبليغ، والفطانة ،والأمانة للرسل عرفها بعض العلماء فقال : هى حفظ الله ظواهر الرسل وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه[1] .

وقد خصت هذه الصفات الأربع من بين سائر الصفات لأنها أمهات صفات الكمال .

قال الشيخ المراغى :« جاءت هذه المقالة على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه على ان بعثة الأنبياء أساسها الدعاء إلى معرفة الناس وطاعته مما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده عن العقاب وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وإن اختلفوا فى تفصيل الأحكام تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور وأن الأنبياء منزهون عن المطامع الدنيوية ولا يأبهون بها ولا يجعلونها قبلة أنظارهم ومحط رحالهم[2] :

وقال الشيخ الغزالى :«إن الأمانة فضيلة ضخمة لا يستطيع حملها الرجال

(١) شرح البيجورى على الجوهرة : ٢٤٨/

(٢) تفسير المراغى : ١٩ / ٨٩

المهازيل ، وقد ضرب الله المثل لضخامتها فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله فلا ينبغى للانسان أن يستهين بها أو يفرط فى حقها »[1] .

ومما تقدم : نقول : إن الأمانة ، والصدق ، من أهم الصفات الواجبة للرسل قبل البعثة ، وبعدها ، حتى وجدنا المشركين مع عدم إيمانهم برسول الله (ﷺ) كانوا يستودعون أماناتهم قبل البعثة وبعدها ،وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين .

(١) خلق المسلم : ٤٩

المقصد الثالث

ثواب الأمناء فى الدنيا والآخرة

الأمانة هى صفة الأنبياء والمرسلين ، فالمؤمن الذى يتصف بهذه الصفة هو جدير بوعد الله فى الحياتين : فى الدنيا والآخرة .

ففى الدنيا يكسب ثقة الناس فبه ومن يكسب ثقه الناس فقد ملك كل شىء ، والمؤمن الذى يؤدى عمله بإخلاص ومسئوليته بأمانة من تقصير أو مماطلة فهو فى غـــير حاجة إلى رقابة عليه ، تتعقبه فى تصرفاته ، لأن أداءه يكون بوحى من ضميره ومن إحساسه العميق بالمسئولية والواجب ، ومن شعوره بالحرية وبذلك يكون قد استطاع أن يطهر نفسه من أطماع الدنيا .

وقد مدح الله المؤمنين المتصفين بالأمانة فى القرآن فقال :

«قد أفلح المؤمنون ... إلى قوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »[1] .

والأمانة الحقيقية هى التى تكون نابعة بإخلاص وصـــدق بعد استقرارها فى الوجدان ، وهيمنتها على جميع مشاعره ، ومما يؤكد هذا

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١ ــ ١١

الكلام ويزيده توثيقا حديث حذيفة بن اليمان عن النبى ﷺ قال : « إن الأمانة نزلت فى جذر[1] قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة »[2] .

فالعلم بأمور الدين والتفقه فى علوم الشريعة لا يغنى عن العمل بها ، لأن الأمانة ما هى إلا ضمير حى يخاف من خالقه إلى جانب الفهم الصحيح للقرآن والسنة فإذا انعدم الضمير وختم على القلوب والأسماع والأبصار انتزعت الأمانه ، فالأمانة ليست شعارات براقة ولا كلمات تردد ، ولكن الأمانة : هى صفة وقرت فى القلب وصدق عليها العمل .

فالأمانة الحقيقة هى التى تدل على قوة الإيمان ولا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، فمن تحلى بهذه الصفة فقد اتصف بجميل الخصال وعظيم الخـــلال فمن يتصف بالأمانة وينزه نفسه عن الغش والخداع والخبث والمكر فليعلم أنه مؤمن حقا ، اتصف بهذه الصفة الأصيله التى جعلت شخصيته مسلما حقا .

(١) الجذر = بفتح وإسكان الذال المعجمة هو أصل الشىء = لسان العرب ، مادة جذر .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق ، باب : رفع الأمانة : حديث رقم : ٦١٣٢ : ٢٣٨٣/٥ ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : رفع الأمانة بالإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب حديث رقم ٢٣٠ : ١٢٦/١

أما فى الآخرة فإنه يكون من أولئك الذين قال الله فيهم « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

فصفة الأمانة : من أعظم الصفات التى يتصف بها المؤمن ويصبح فى عداد الأتقياء ، بل إن الأمانة إذا فشت فى أمة من الأمم وأصبحت فضيلة من فضائلها وتحلى بها أفرادها فهى الأمة الوارثة التى يورثها الله الشرف الأعظم ويمنحها الجزاء الأوفى ولذلك نهى الله المؤمنين من خيانتها فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ، وذكر كل من الحافظ السيوطى والواحدى ، والنيسابورى أن سبب نزول هذه الآية : فى أبى لبابة بن عبد المنذر الانصارى حينما سأله بنو قريظة أننزل على حكم سعد بن معاذ فينا فأشار أبو لبابة بن عبد المنذر إلى حلقه (أى أن حكم سعد فيكم سيكون الذبح) فأبوا إلى آخره[1] .

وعلى كل نقول : فالامانة فى الآية : كما يشير سبب نزولها هى أمانة أداء العمل أو هى أمانة المجالس وأيا ما كان السبب لنزول الآية فإن حكم النهى عن الخيانة عام فى كل الامانات لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخوص السبب .

(١) أسباب النزول للواحدى : /١٧٥ ، أسباب النزول للسيوطى : /١١٠ ، أسباب النزول للنيسابورى : /١٧٣

المقصد الرابع

عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال

قال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما »[1] .

ذكر المولى جل وعلا فى هاتين الآيتين أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، أى خفن من عواقب حملها ، أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه وقد اختلف العلماء فى بيان المراد من الأمانة .

هل هو على سبيل الحقيقة أم سبيل المجاز ؟

أولا قيل : إن عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، على سبيل الحقيقة ، وهى أن الله سبحانه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وهى التكاليف الشرعية المعبر عنها بالأمانة وخلق فيها السمع والكلام فرفضن ذلك خوف من عجزهن عن القيام بأداء هذه الأمانة ثم عرض هذا العرض نفسه على آدم باعتباره رأس الجنس الإنسانى

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢،٧٣ .

وعلى ذريته فى عالم الذرة فحصل منهم القبول بحمل هـذه الأمانة وهى التكاليف الشرعية من عبادة الله وما يستلزمه من الطاعات .

وقيل : إن هذا العرض والإباء والإشفاق كله حق وقد خلق الله للسموات والأرض والجبال إدراكا يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه وبذلك الإدراك أدركت عرض الأمانة عليها وأشفقت (وأبت) أى خافت[1] .

ومما يؤكد هذا العرض قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا . . »[2] .

وقوله تعالى : « وإن منها لما يهبط من خشية الله . . »[3]

وقوله تعالى : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »[4] .

فصرح الله فى هذه الآيات بأن هناك من الحجارة مايهبط من خشية لله وهذه الخشية التى نسبها الله لبعض الحجارة بأدراك يعلمه هو تعالى

---

(١) أضواء البيان للشنقيطى : ٦/٢٥٨ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٧٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٧٤ .
(٤) سورة الإسراء : ٤٤ .

وكذلك تسبيح السموات السبع والأراضين السبع ومن فيهن ، وإنما يكون ذلك بإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه .

وقال الشيخ الجمل : « وكان هذا العرض تخييرا لا إلزاما ، ولو ألزمنهن لم يمتنعن عن حملها والجمادات كلها خاضعة لله تعالى مطيعة لأمره ساجدة له ، قال بعض العلماء : ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن »[1] .

ثانيا : يرى بعض العلماء أن العرض فى الآية هو من قبيل ضرب المثل أو من قبيل المجاز ، أو على التشبيه والتمثيل وليس هناك عرض حقيقى ولا رفض أو قبول حقيقى ، ولكن يكون المعنى : أن السموات والأرض والجبال غير مكلفة بالتكاليف لفقدان العقل والإرادة فيها ، والتكاليف الشرعية هى الضريبة على عقل الإنسان وحريته وإرادته « ولذلك كان هو المكلف بالتكاليف الشرعية ، من بين سائر الكائنات والمخلوقات ، ولكن هذا المعنى جاء فى صورة وأسلوب أن عرض هذه الأمانة على الكائنات والمخلوقات من غير الإنسان فلم يحملنها وعرضها على الإنسان فحملها ، فأصبح هو المكلف بالديانات وحده .

قال الإمام القرطبى ماخلاصته : لما بين الله تعالى فى هذه السورة من الأحكام مابين أمر بالتزام أوامره والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور ، ويصح أن يكون عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة .

---

(١) تفسير الجمل : ٣/٤٥٨ .

وقال القفال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مثل أى أن السموات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكاليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد حمله الإنسان وهو ظلوم جهول ، لو عقل ، وهذا كقوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »[1] .

وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أى أن إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقه وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت فعبر عن هذا بعرض الأمانة ، كما تقول عرضت الحمل على البعير فأباه وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه[2] .

ويبدوا لنا مما تقدم أن حمل الكلام على الحقيقة هو أولى بالقبول لأنه مادام لم يوجد هنا مانع يمنع منه فلاداعى لصرفه عن ذلك ، لأن هناك الكثير من الأدلة فى القرآن الكريم أو فى السنة على أن العرض كان حقيقياً .

(١) سورة الحشر الآية : ٢١ .
(٢) تفسير القرطبى : ٢٦٤/٢٤

الإباء فى اللغة

أما عن معنى الإباء فى اللغة ، فقد قال صاحب اللسان : « وأبى الشىء يأبيه ، من باب ضرب أى امتنع عنه وكرهه ولم يرضه قال تعالى : « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » على المجاز ، صور السموات والأرض بصورة الممتنع من العقلاء عن حمل الأمانة كراهة لثقل أعبائها وإشفاقا من العذاب على عدم الوفاء بحقوقها »[1] .

وإباء السموات والأرض والجبال كما جاء فى الآية نقول والله أعلم إنه ليس معناه الرفض عصيانا أو امتناعا وإنما معناه : عدم موافقة طبيعة هذه العوالم لقبول هذا الأمر المعروض عليها ، فهو إباء عجز وقصور ، كما عجزت الملائكة عن قبول العرض فى التعرف على أسماء الأنبياء المعروض عليهم فهو إباء محكوم بالطبيعة لا دخل للإرادة أو التصنع فيه والله أعلم .

(١) لسان العرب . مادة أبى : ١٤/١ القاموس القويم: ٥/١

لماذا حملها الإنسان

قال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما »(١) .

لقد كرم الله الإنسان عن سائر مخلوقاته وسخر له كل ما فى السموات والأرض ، وسخر له الليل والنهار ، ومن أجل هذا وذاك فقد كلف الله الأنسان وحمله الأمانة التى أبت السموات والأرض والجبال وأشفقن من حملها فكان ذلك تكريما له وتشريفا لانه منح العقل والفهم والقدرة على التمييز وحرية الاختيار ، ولأن العقل هو مناط التكليف حيث لا يقع التكليف على غير قادر مريد مدرك لما كلف به وإذا كان الإنسان هو الكائن الذى أوتى عقلا وإدراكا من بين سائر الكائنات فقد كان هو الكائن الذى أختص بالتكليف ويحمل أمانة ماكلف به(٢) .

وأعانه الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبين فيها الحلال والحرام والخير والشر والنافع والضار وأنعم عليهم بكل ما فى الكون فالإنسان إذ حمل هذه الامانة أى أمانة التكليف أصبح سيد الكائنات كلها لا سيد فوقه إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو بهذا الخلق الكريم ظل الله تعالى فى هذا

---

(١) سورة الاحزاب ، الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) التفسير القرآنى للقرآن ، عبد الكريم الخطيب: ٢٢/٧٦١ — ٧٧٠

الوجود وليس هناك تضاد فى ظاهر الكلام المادح للإنسان مع بقية الآية التى تحمل بين طياتها ذم الإنسان بأنه كان ظلوما جهولا ، فليس شرف الأمانة وشرف حملها لمطلق الإنسان ، وإنما يكون حمل الامانة شرف لمن تاب الله عليهم من المؤمنين والمؤمنات وظلم وجهل وتعذيب للمنافقين والمنافقات وإن الأجرام الكونية لم توهب ما وهبه الإنسان لانها لم تكن أهلا للتكاليف ولا مستعدة لتحمل تبعات الأمانة فهى لا اختيار لها ، بل هى تسبح بحمد ربها آناء الليل وأطراف النهار على نحو لا نفهم ومسخرة لما خلقت له حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الخاتمة

وبعد هذا العرض الموجز للحديث عن الامانة فى ضوء القرآن الكريم وأهميته فى العصر الحاضر الذى اختلط فيه الحابل بالنابل، فما أحوج المسلمين اليوم أن يتصفوا بهذه الصفة ، وأن ينتزهوا عن الخيانة (بل جعل النبى ﷺ) أن تضييع الامانة دليل على عدم الإيمان ، وأنه ضمن أمارات الساعة ، فقال ﷺ « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له »[1] .

قال ﷺ : « إذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة[2] ، ومن ثم فإننا نخرج من هذا الموضوع بثمرات أهمها :

أولا — على كل مسلم عاقل أن يعمل جاهداً على إتصافه بالامانة فى جميع أحواله وتصرفاته ، لأن الامانة بكل مدلولاتها هى أساس الحياة فى المجتمع الإسلامى فى إيمان الناس بربهم وفى كل شىء يتعلق بمعاشهم ومعادهم .

ثانيا — الإشارة إلى تكريم الله للإنسان وتفضيله عن سائر مخلوقاته ومع ضعف قوته وقلة حيلته فقد حمل الامانة التى أبت السموات والارض والجبال عن حملها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ١٣٥/٣

(٢) صحيح البخارى — كتاب العلم — باب فضل العلم ٢٣/١ — ١٢٩/٨

ثالثا — فى الآيات دلالة على أن الإنسان أن يعض بالنواجذ على صفة الامانة والسهر على رعايتها صيانة للحقوق كما أمرهم ربهم .

رابعا — فى الآيات دلالة على ذم الخيانة وأن الله لا يهدى كيد الخائنين فأى طريق ملتو هو سحت لان ذلك يعتبر اختلاسا من المال العام الذى ينفق فى حقوق الضعفاء والفقراء وتقام به المشاريع العامة ، وهو غلول أيضا قال تعالى : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة .. »[1] .

وقبل أن أختم هذا البحث أسأل الله سبحانه وتعالى : لى وللمسلمين التوفيق والسداد وأن يجعلنا من المحافظين على الامانة المتصفين بها خلقا وخلقا ، إنه على ما يشاء قدير .

وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

دكتور
فتحى محمد محمد غريب
مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين بالقاهرة

---

(١) سورة الاعراف ، آية : ١٦١

أهم المراجع

— القرآن الكريم .

— البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي طبعة النصر الحديثة .

— التعريفات للإمام على بن محمد الجرجانى الطبعة الأولى ١٤١١ هـ — ١٩٩١ م .

— اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين .

— الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي ، دار الشام — بيروت .

— الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .

— أسباب النزول ، للإمام أبي الحسن الواحدى ، مكتبة المتنبي — القاهرة .

— أسباب النزول للإمام أبي الحسن على بن أحمد النيسابورى ، مطبعة الأنوار المحمديه .

— أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن للإمام محمد الأمين ابن محمد بن المختار الشنقيطى ، طبعة دار الفكر .

— الفقه على المذاهب الأربعة ، للإمام عبد الرحمن الجزيرى ، طبعة دار الإرشاد للتأليف والطبع والنشر .

— القاموس القويم للقرآن الكريم الأستاذ ابراهيم عبد الفتاح ، طبعة مجمع البحوث الإسلاميه ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٣ م .

— المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابورى ، دار الكتاب العربى .

— خلق المسلم للشيخ الإمام محمد الغزالى (رحمه الله) الطبعة التاسعة دار التوفيق النموذجية ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م .

— روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للسيد محمد الآلوسى ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م .

— لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن ، دار المعرفة — بيروت — لبنان .

— تفسير القرآن العظيم ، للإمام الجليل اسماعيل ابن كثير ، القرشى ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، طبعة ١٤٥١ هـ — ١٩٨٠ م .

— تفسير الكشاف ، لأبى القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ، دار المعرفة — بيروت .

— تفسير المراغى ، للإمام أحمد مصطفى المراغى ، الطبعة الثانية ، مطبعة الحلبى ، ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٣ م .

— زاد المسير فى علم التفسير ، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى ، الطبعة الأولى — دار الفكر .

— شرح البيجورى على الجوهرة ، تأليف شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى ، طبعة الأزهر ١٩٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

— صحيح البخارى ، طبعة دار الجيل — بيروت .

— صحيح مسلم ، بشرح النووى ، طبعة دار الفكر للنشر والتوزيع ١٤١٥ هـ — ١٩٩٥ م .

— لسان العرب للإمام جمال الدين أبى الفضل محمد بن مكرم بن على بن منظور ، طبعة دار المعارف .

— مسند الإمام أحمد ، تأليف الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ، الطبعة الثانية . دار الفكر ١٩٧٨ م .